

وقرى: أن لا يقدرُوا ﴿بِعِيدِ اللَّهِ﴾ في ملكه وتصرفه واليد مثل ﴿يُؤْتِيهِ مِنْ يَشَاءُ﴾ ولا يشاء إلا إيتاء من يستحقه. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الحديد كتب من الذين آمنوا بالله ورسوله»⁽³⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة المجادلة مدنية

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَاذِرٌ لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾.

﴿قد سمع الله﴾ قالت عائشة رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات»⁽⁴⁾. لقد كلمت المجادلة رسول الله ﷺ في جانب البيت وأنا عنده لا أسمع وقد سمع لها،⁽⁵⁾ وعن عمر أنه كان إذا نخلت عليه أكرمها. وقال: قد سمع الله لها. وقرى: تحاورك أي: تراجعك الكلام. وتحاولك أي: تسائلك. وهي: «خولة بنت ثعلبة امرأة أوس»⁽⁶⁾ بن الصامت أخي عبادة. رآها وهي تصلي وكانت حسنة الجسم فلما سلمت راودها فأبى فغضب وكان به خفة ولمم فظاهر منها. فاتت رسول الله ﷺ فقالت: إن أوساً تزوجني وأنا شابة مرغوب في فلما خلا سني ونثرت بطني أي: كثر ولدي جعلني عليه كأمه. وروي أنها قالت له: إن لي صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إلي جاعوا. فقال: «ما عندي في أمرك شيء» وروي أنه قال لها: «حرمت علي»، فقالت يا رسول الله ما نكر طلاقاً، وإنما هو أبو ولدي وأحب الناس إلي. فقال حرمت علي. فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووجدي. كلما قال رسول الله ﷺ: حرمت علي هتفت وشكت إلى الله فنزلت ﴿في زوجها﴾ في شأنه⁽⁷⁾. ومعناه ﴿إن الله سميع بصير﴾ يصح أن يسمع كل مسموع ويبصر كل مبصر.

فإن قلت: ما معنى ﴿قد﴾ في قوله ﴿قد سمع﴾؟ قلت: معناه التوقع لأن رسول الله ﷺ والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع الله مجادلتها وشكواها وينزل في ذلك ما يفرج عنها.

الَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْكُمْ مَنْ سَاءَ بِهِمْ مَا هُمْ أَهْلُهُمْ إِنْ أَمَّنْتَهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْتَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ زَوْرًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْ سَائِبِهِمْ ثُمَّ يُعَوِّدُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ

بموسى وعيسى آمنوا بمحمد ﴿بِؤْتِكُمْ﴾ الله ﴿كفلين﴾ أي: نصيبين ﴿من رحمته﴾ لإيمانكم بمحمد وإيمانكم بمن قبله. ﴿ويجعل لكم﴾ يوم القيامة ﴿نورا تمشون به﴾ وهو النور المنكسر في قوله: ﴿يسعى نورهم﴾ و﴿يغفر لكم﴾ ما أسلفتم من الكفر والمعاصي.

إِنَّمَا يَتَمَنَّاهُ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَتَذَكَّرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٣﴾.

﴿لئلا يعلم﴾ ليعلم ﴿أهل الكتاب﴾ الذين لم يسلموا ولا مزيدة ﴿إلا يقدرُونَ﴾ أن مخفة من الثقلية أصله أنه لا يقدرُونَ يعني: أن الشأن لا يقدرُونَ ﴿على شيء من فضل الله﴾ أي: لا ينالون شيئاً مما نكر من فضله من الكفليين والنور والمغفرة؛ لأنهم لم يؤمنوا برسول الله فلم ينفعهم إيمانهم بمن قبله ولم يكسبهم فضلاً قط. وإن كان خطاباً لغيرهم فالمعنى: اتقوا الله وثابتوا على إيمانكم برسول الله يؤتكم ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الكفليين في قوله: ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين﴾⁽¹⁾ ولا ينقصكم من مثل أجرهم لأنكم مثلهم في الإيمانين لا تفرقون بين أحد من رسله. روي: أن رسول الله ﷺ بعث جعفرًا رضي الله عنه في سبعين راكبًا إلى النجاشي يدعوه، فقدم جعفر عليه فدعاه فاستجاب له. فقال ناس ممن آمن من أهل مملكته وهم أربعون رجلاً: اننن لنا في الوفاة على رسول الله ﷺ فإنن لهم. فقدموا مع جعفر وقد تهبوا لوقعة أحد فلما رأوا ما بالمسلمين من خصاصة استأنوا رسول الله ﷺ فرجعوا وقدموا بأموال لهم فأسوا بها المسلمين. فأنزل: ﴿الله الذين آتيناكم الكتاب﴾ إلى قوله: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾. فلما سمع من لم يؤمن من أهل الكتاب قوله يؤتون أجرهم مرتين فخروا على المسلمين وقالوا: أما من آمن بكتابكم وكتابنا فله أجره مرتين. وأما من لم يؤمن بكتابكم فله أجر كاجرهم فما فضلكم علينا فنزلت⁽²⁾. وروي أن مؤمني أهل الكتاب افتخروا على غيرهم من المؤمنين بأنهم يؤتون أجرهم مرتين وادعوا الفضل عليهم فنزلت. وقرى: لكي يعلم ولكيلا يعلم وليعلم لأن يعلم بإدغام النون في الياء، ولين يعلم بقلب الهمزة ياء وإدغام النون في الياء، وعن الحسن: ليلا يعلم بفتح اللام وسكون الياء. ورواه قطرب بكسر اللام وقيل: في وجهها حذف همزة وأن وادغمت نونها في لام لا فصار لا ثم أبدلت من اللام المدغمة ياء كقولهم: ديوان وقيراط. ومن فتح اللام فعلى أن أصل لام الجر الفتح كما أنشد:

أريد لا أنسى نكرها

(1) سورة القصص، الآية: 54.
(2) رواه الطبري في تفسيره. وأخرجه الزيلعي 3/419.
(3) رواه الثعلبي والواحدي وابن مردويه والزيلعي 3/420.
(4) قال أحمد: ولقد استدل به بعضهم على عدم لزوم ظهار الذمي، وليس بقوي؛ لأنه غير المقصود.
(5) أخرجه النسائي في كتاب: الطلاق، باب: الظهار (الحديث رقم: 3460)، وأخرجه ابن ماجه المقدمة، باب: فيما نكرت الجهمية (الحديث رقم: 188)، وأخرجه أحمد في المسند 6/46.
(6) رواه الدارقطني في السنن 3/316 (الحديث رقم: 259).
(7) رواه الطبري في تفسيره، وأخرجه الزيلعي 3/423.

الحكم بالكفارة دليل على ارتكاب الجنابة فيجب أن تتعظوا بهذا الحكم حتى لا تعودوا إلى الظهار وتخافوا عقاب الله عليه.

فإن قُلْتُ: هل يصح الظهار بغير هذا اللفظ؟ قُلْتُ: نعم إذا وضع مكان أنت عضواً منها يعبر به عن الجملة، كالرأس والوجه والرقبة والفرج. ومكان الظهر عضواً آخر يحرم النظر إليه من الأم كالبطن والفخذ أو مكان الأم ذات رحم محرم منه من نسب أو رضاع أو صهر أو جماع. نحو أن يقول: أنت علي كظهر أختي من الرضاع، أو عمتي من النسب، أو امرأة ابني، أو أبي أو أم امرأتي أو بنتها، فهو مظاهر وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه. وعن الحسن والنخعي والزهري والأوزاعي والثوري وغيرهم نحوه. وقال الشافعي: لا يكون الظهار إلا بالأم وحدها. وهو قول قتادة والشعبي، وعن الشعبي: لم ينسأ الله أن يذكر البنات والأخوات والعمات والخالات إذ أخبر أن الظهار إنما يكون بالأمهات والوالدات دون المرضعات. وعن بعضهم: لا بد من ذكر الظهر حتى يكون ظهاراً.

فإن قُلْتُ: فإذا امتنع المظاهر من الكفارة هل للمرأة أن ترافعه؟ قُلْتُ: لها ذلك وعلى القاضي أن يجبره على أن يكفر وأن يجبره ولا شيء من الكفارات يجبر عليه ويحبس إلا كفارة الظهار وحدها؛ لأنه يضر بها في ترك التكفير والامتناع من الاستمتاع فيلزم إيفاء حقه.

فإن قُلْتُ: فإن مس قبل أن يكفر؟ قُلْتُ: عليه أن يستغفر ولا يعود حتى يكفر. لما روي أن سلمة بن صخر البياضي قال لرسول الله ﷺ: ظهرت من امرأتي ثم أبصرت خلخالها في ليلة قمرء فواقعتها. فقال عليه الصلاة والسلام: «استغفر ربك ولا تعد حتى تكفر»⁽⁵⁾.

فإن قُلْتُ: أي: رقية تجزي في كفارة الظهار؟ قُلْتُ: المسلمة والكافرة جميعاً؛ لأنها في الآية مطلقة. وعند الشافعي: لا تجزي إلا المؤمنة لقوله تعالى: في كفارة القتل: «فتحرير رقبة مؤمنة»⁽⁶⁾ ولا تجزي أم الولد والمدير والمكاتب الذي أدى شيئاً فإن لم يؤد شيئاً، جاز. وعند الشافعي لا يجوز.

رَقِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمْسَأَ ذَلِكَ تُعْظَرَتْ بِهِ، وَاللَّهُ بِمَا تَمَكُّونَ حَبِيرٌ ﴿٣﴾.

«الذين يظاهرون منكم» في منكم توبيخ للعرب وتهجين لعانتهم في الظهار؛ لأنه كان من إيمان أهل جاهليتهم خاصة دون سائر الأمم **«ما هن أمهاتهم»** وقرئ بالرفع على اللغتين الحجازية والتميمية. وفي قراءة ابن مسعود: بأمهاتهم وزيادة الباء في لغة من ينصب، والمعنى: أن من يقول لامرأته: أنت علي كظهر أمي ملحق في كلامه هذا للزوج بالأم وجاعلها مثلها، وهذا تشبيه باطل لتباين الحالين. **«إن أمهاتهم إلا اللاتي ولبنهن»** يريد أن الأمهات على الحقيقة إنما هن الوالدات وغيرهن ملحقات بهن لدخولهن في حكمهن، فالمرضعات أمهات؛ لأنهن لما أرضعن بخلن بالرضاع في حكم الأمهات. وكذلك أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين؛ لأن الله حرّم نكاحهن على الأمة فدخلن بذلك في حكم الأمهات. وأما الزوجات فأبعد شيء من الأمومة؛ لأنهن لسن بأمهات على الحقيقة ولا بدخلات في حكم الأمهات. فكان قول المظاهر منكراً من القول تنكره الحقيقة وتنكره الأحكام الشرعية وزوراً وكذباً باطلاً منحرفاً عن الحق **«وإن الله لعفو غفور»** لما سلف منه إذا تيب عنه ولم يعد إليه، ثم قال: **«والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا»** يعني: والذين كانت عابتهن أن يقولوا هذا القول⁽¹⁾ المنكر فقطعوا بالإسلام ثم يعودون لمثله فكفارة من عاد أن يحزر رنية، ثم يماس المظاهر منها، لا تحل له مماسها إلا بعد تقسيم الكفارة. ووجه آخر ثم يعودون لما قالوا ثم ينداركون ما قالوا⁽²⁾؛ لأن المتدارك للامر عائد إليه ومنه المثل: عاد غيث على ما أفسد أي: تداركه بالإصلاح. والمعنى أن تدارك هذا القول وتلافيه بأن يكفر حتى ترجع حالهما كما كانت قبل الظهار. ووجه ثالث وهو أن يراد بما قالوا⁽³⁾ ما حرّمه على أنفسهم بلفظ الظهار تنزيلاً للقول منزلة القول فيه نحو ما نكرنا في قوله تعالى: «ونرثه ما يقول»⁽⁴⁾ ويكون المعنى ثم يريدون العود للتماس، والمماس؛ الاستمتاع بها من جماع أو لمس بشهوة أو نظر إلى فرجها لشهوة **«ولكنكم»** الحكم **«توعظون به»** لأن

(1) قال أحمد: وهذا الوجه يلزم الكفارة لمجرد قول الظهار في الإسلام لا غير، والقول بوجودها بمجرد الظهار، قول مجاهد من التابعين، وسفيان من الفقهاء.

(2) قال أحمد: وهذا التفسير منزل، على أن وجوب الكفارة مشروط بالعود بعد الظهار، وهو القول المشهور لفقهاء الأمام، ولا يخص هذا التفسير وجهاً من وجوه العود التي نكرها العلماء.

(3) قال أحمد: وهذا التفسير يقوي القول، بأن العود الوطء نفسه؛ لأن حاص له ثم يعودون للوطء، وظاهر قولك: عاد للوطء فعله، وحمل العود على الوطء من جملة أقوال مالك رحمه الله، فقد تلخص أن كلام المختلفين في العود له مأخذ من هذه الآية، فأما من لم يقف وجوب الكفارة عنده إلا على مجرد الظهار، فحمل العود على =

(4) سورة النساء، الآية: 92.

عبدًا لم يفقه منه شيء ﴿ونسوه﴾ لأنهم تهاونوا به حين ارتكبه لم يبالوا به لضراوتهم بالمعاصي وإنما تحفظ معظمات الأمور.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاكِبُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنْ مَا كَانُوا مِنْكُمْ يَتَّبِعُهُمْ يَمَّا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾.

﴿ما يكون﴾ من كان التامة. وقرئ: بالياء والتاء والياء على أن النجوى تانيثها غير حقيقي ومن فاصلة أو على أن المعنى ما يكون شيء من النجوى. والنجوى: التناجي فلا تخلو إما أن تكون مضافة إلى ثلاثة أي: من نجوى ثلاثة نفر أو موصوفة بها أي: من أهل نجوى ثلاثة فحذف الأهل أو جعلوا نجوى في أنفسهم مبالغة كقوله تعالى: ﴿خلصوا نجياً﴾^(١) وقرأ ابن أبي عيلة ثلاثة وخمسة بالنصب على الحال بإضمار يتناجون؛ لأن نجوى يدل عليه أو على تأويل نجوى بمتناجين ونصبها من المستكن فيه.

فإن قُلْتُمْ: ما الداعي إلى تخصيص الثلاثة والخمسة؟ قُلْتُمْ: فيه وجهان أحدهما: أن قومًا من المنافقين تحلقوا للتناجي مغايلة للمؤمنين على هذين العددين ثلاثة وخمسة فقيل: ما يتناجى منهم ثلاثة ولا خمسة كما ترونهم يتناجون كذلك ﴿ولا أنفي من﴾ عديهم ﴿ولا أكثر إلا﴾ والله معهم يسمع ما يقولون. فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه: أنها نزلت في ربيعة وحبيب ابني عمرو وصفوان بن أمية كانوا يوماً يتحدثون فقال أحدهم: أتري أن الله يعلم ما نقول؟ فقال الآخر: يعلم بعضاً ولا يعلم بعضاً. وقال الثالث: إن كان يعلم بعضاً فهو يعلم كله. وصدق؛ لأن من علم بعض الأشياء بغير سبب فقد علمها كلها؛ لأن كونه عالمًا بغير سبب ثابت له مع كل معلوم. والثاني: أنه قصد أن يذكر ما جرت عليه العادة من أعداد أهل النجوى والمتخالفين للشورى والمنديون لذلك ليسوا بكل أحد وإنما هم طائفة مجتباة من أولي النهي والأحلام ورهط من أهل الرأي التجارب وأول عدهم الاثنان فصاعدًا إلى خمسة إلى ستة إلى ما اقتضته الحال وحكم الاستصواب ألا ترى إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كيف ترك الأمر شورى بين ستة ولم يتجاوز بها إلى سابع فنكر عز وعلا الثلاثة والخمسة وقال: ولا أنفي من ذلك فدل على الاثنيين والأربعة. وقال: ولا أكثر فدل على ما يلي هذا العدد ويقاربه. وفي مصحف عبد الله إلا الله رابعهم ولا أربعة إلا الله خامسهم ولا خمسة إلا الله سادسهم ولا أقل من ذلك ولا أكثر إلا الله معهم إذا انتجوا.

وقرئ: ﴿ولا أنفي من ذلك ولا أكثر﴾ بالنصب على أن لا لنفي الجنس، ويجوز أن يكون ﴿ولا أكثر﴾ بالرفع

فإن قُلْتُمْ: فإن أعتق بعض الرقبة أو صام بعض الصيام ثم مس قُلْتُمْ: عليه أن يستأنف نهار أمس أو ليلًا ناسيًا أو عامدًا عند أبي حنيفة وعند أبي يوسف. ومحمد عتق بعض الرقبة عتق كلها فيجزيه وإن كان المس يفسد الصوم استقبل والا بنى.

فإن قُلْتُمْ: كم يعطي المسكين في الإطعام؟ قُلْتُمْ: نصف صاع من برٍّ أو صاعًا من غيره. عند أبي حنيفة وعند الشافعي مدًا من طعام بلده الذي يقات فيه.

فإن قُلْتُمْ: ما بال التماس لم يذكر عند الكفارة بالإطعام كما نكر عند الكفارتين! قُلْتُمْ: اختلف في ذلك فعند أبي حنيفة أنه لا فرق بين الكفارات الثلاث في وجوب تقديمها على المساس وإنما ترك نكره عند الإطعام دلالة على أنه إذا وجد في خلال الإطعام لم يستأنف كما يستأنف الصوم إذا وقع في خلاله وعند غيره لم يذكر للدلالة على أن التكفير قبله وبعده سواء.

فإن قُلْتُمْ: الضمير في أن يتماسا لإم يرجع؟ قُلْتُمْ: إلى ما دل عليه الكلام من المظاهر والمظاهر منها.

﴿ذلك﴾ البيان والتعليم للأحكام والتنبيه عليها لتصدقوا ﴿بإياه ورسوله﴾ في العمل بشرائعه التي شرعها من الظهار وغيره ورفض ما كنتم عليه في جاهليتكم. ﴿وتلك حدود الله﴾ التي لا يجوز تعديها ﴿ولللكافرين﴾ الذين لا يتبعونها ولا يعملون عليها ﴿عذاب اليم﴾.

فَمَنْ أَرَادَ يَحِدَ فَيَسِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَابِعَيْنِ مِنْ بَيْتٍ أَنْ يَتَأْتَا فَمَنْ أَرَادَ يَسْتَلِمْ فَلِلْعَامِ سِتْرَيْنِ مِثْلَ ذَلِكَ لِيَتَمَتَّعُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَعْلَىٰ كَمَا كُتِبَ لِلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتِنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٤٢﴾

﴿يحادون﴾ يعاونون ويشاقون ﴿كبتوا﴾ أخذوا وأهلكوا ﴿كما كبت﴾ من قبلهم من أعداء الرسل. قيل: أريد كبتهم يوم الخندق. ﴿وقد أنزلنا آيات بينات﴾ تدل على صدق الرسول وصحة ما جاء به ﴿ولللكافرين﴾ بهذه الآيات ﴿عذاب مهين﴾ يذهب بعزهم وكبرهم.

يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ جَيْمًا يُتَّبِعُهُمْ يَمَّا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٦﴾.

﴿يوم يبعثهم﴾ منصوب بلهم أو بمهين أو بإضمار انكر تعظيمًا لليرم ﴿جميعًا﴾ كلهم لا يترك منهم أحد غير مبعوث أو مجتمعين في حال واحدة كما تقول حي جميع ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ تخجيلًا لهم وتوبيخًا وتشهيرًا بحالهم يتمنون عنده المسارعة بهم إلى النار لما يلحقهم من الخزي على رؤوس الأشهاد ﴿أحصاه الله﴾ أحاط به

إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ النَّبِيِّ يَحْزَنُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِصَارِهِمْ شَيْئًا
إِلَّا يَأْذَنُ اللَّهُ وَكَلَّمَ اللَّهُ قَلْبَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾

﴿إنما النجوى﴾ اللام إشارة إلى النجوى بالإثم والعدوان بليل قوله تعالى: ﴿ليحزن الذين آمنوا﴾ والمعنى: أن الشيطان يزينها لهم فكانها منه ليغيب الذين آمنوا ويحزنهم ﴿وليس﴾ الشيطان أو الحزن ﴿ببصارهم شيئاً إلا بإذن الله﴾.

فإن قلت: كيف لا يبصرهم الشيطان أو الحزن إلا بإذن الله؟ قلت: كانوا يوهمون المؤمنين في نجواهم ويتغامزهم أن غزاتهم غلبوا وأن أقاربهم قتلوا. فقال: لا يبصرهم الشيطان أو الحزن بذلك المومم إلا بإذن الله أي: بمشيئته. وهو أن يقضي الموت على أقاربهم أو الغلبة على الغزاة. وقرئ: ليحزن وليحزن.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَسَعُّوا فِي الْمَجَالِسِ فَانْسَحُوا
بِرُفْعِ اللَّهِ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا بِرُفْعِ اللَّهِ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ
وَالَّذِينَ أُولُوا أَلْمَلَةَ دَرَكَيْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَكَلَّمُونَ خَبِيرٌ ﴿١٧﴾

﴿تفسحوا في المجالس﴾ توسعوا فيه، وليفسح بعضهم عن بعض. من قولهم: أفسح عني أي: تنح. ولا تتضاموا. وقرئ: تفسحوا. والمراد: مجلس رسول الله وكانوا يتضامون فيه تنافساً على القرب منه وحرصاً على استماع كلامه. وقيل: هو المجلس من مجالس القتال وهي مراكز الغزاة كقوله تعالى: مقاعد للقتال. وقرئ: في المجالس قيل: كان الرجل يأتي الصف فيقول تفسحوا فيأبون لحرصهم على الشهادة. وقرئ: في المجلس بفتح اللام وهو الجلوس أي: توسعوا في جلوسكم ولا تتضايقوا فيه ﴿بفسح الله لكم﴾ مطلق في كل ما يبتغي الناس الفسحة فيه من المكان والرزق والصدر والقبور وغير ذلك. ﴿انشروا﴾ انهضوا للتوسعة على المقبلين أو انهضوا عن مجلس رسول الله إذا أمرتم بالنهوض عنه ولا تملوا رسول الله بالارتكاز فيه أو انهضوا إلى الصلاة والجهاد وأعمال الخير إذا استنهضتم ولا تثبطوا ولا تفرطوا. ﴿يرفع الله﴾ المؤمنين بامتثال أوامره وأوامر رسوله والعالمين منهم خاصة⁽³⁾ ﴿درجات﴾. ﴿بما تعملون﴾ قرئ: بالتاء والياء. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه كان إذا قرأها قال: يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغبكم في العلم. وعن النبي ﷺ: «بين العالم والعابد

معطوفاً على محل ﴿لا﴾ مع ﴿اننى﴾ كقولك: لا حول ولا قوة إلا بالله بفتح الحول ورفع القوة، ويجوز أن يكونا مرفوعين على الابتداء كقولك: لا حول ولا قوة إلا بالله وأن يكون ارتفاعهما عطفاً على محل من نجوى كأنه قيل: ما يكون أننى ولا أكثر إلا هو معهم. ويجوز أن يكونا مجرورين عطفاً على نجوى كأنه قيل: ما يكون من أننى ولا أكثر إلا هو معهم. وقرئ: ولا أكبر بالياء ومعنى كونه معهم أنه يعلم ما يتناجون به ولا يخفى عليه ما هم فيه فكانه مشاهدهم ومحاضرهم وقد تعالى عن المكان والمشاهدة. وقرئ: ثم ينبئهم على التخفيف.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يُعَادُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَبَّهُونَ
بِالْآثِمِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَتَضَيَّعَ الرَّسُولُ وَإِذَا جَاءَكَ حَيْوَتُكَ بِمَا لَمْ يَحْيِكَ بِهِ
اللَّهُ وَمُؤْمِنُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِمَا نَقَلُوا عَنْهُمْ لِيُرَوِّعَهُمْ يَسْأَلُونَكَ
عَنِ الْمَعْصِيَةِ ﴿١٨﴾

كانت اليهود والمنافقون يتناجون فيما بينهم ويتغامزون بأعيانهم إذا رأوا المؤمنين يريدون أن يغفلوهم. فنهاهم رسول الله ﷺ فعادوا لمثل فعلهم وكان تناجيهم بما هو إثم وعدوان للمؤمنين وتواص بمعضية الرسول ومخالفته. وقرئ: ينتجون بالإثم والعدوان بكسر العين ومعصيات الرسول.

﴿حيوك بما لم يحيك به الله﴾ يعني: أنهم يقولون: في حديث السام عليك يا محمد والسام الموت، والله تعالى يقول: ﴿وسلام على عباده الذين اصطفى﴾⁽¹⁾ ويا أيها الرسول ويا أيها النبي ﴿لولا يعذبنا الله بما نقول﴾ كانوا يقولون: ما له إن كان نبياً لا يدعو علينا حتى يعذبنا الله بما نقول. فقال الله تعالى: ﴿حسبهم جهنم﴾ عذاباً.

يَدَّبُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّرُوا بِالْآثِمِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَتَضَيَّعَ
الرَّسُولُ وَتَضَيَّعَ بِاللَّيْلِ وَالنَّجْوَى وَأَنْتُمْ اللَّهُ الَّذِينَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٩﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ خطاب للمنافقين الذين آمنوا بالسنتهم ويجوز أن يكون للمؤمنين أي: إذا تناجيهم فلا تتشبهوا بأولئك في تناجيهم بالشر ﴿وتناجوا بالبر والقوى﴾ وعن النبي ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنتان بون صاحبهما فإن ذلك يحزنه». وروي: «نون الثالث»⁽²⁾. وقرئ: فلا تناجوا. وعن ابن مسعود: إذا تنجيتم فلا تتنجوا.

(1) سورة النحل، الآية: 59.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الاستئذان، باب: إذا كانوا أكثر من ثلاثة (لحديث رقم: 6290) وأخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: تحريم مناجاة الاثنين بون الثالث بغير رضاه (لحديث رقم: 37 - 2184).

(3) قال أحمد: في الجزاء برفع الدرجات ههنا مناسبة للعمل؛ لأن ما أمر به تفسيح المجلس كيلا يتنافسوا في القرب من المكان =

= الرفع حوله عليه الصلاة والسلام فيتضايقوا، فلما كان الممتثل لذلك يخفض نفسه عما يتنافس فيه من الرفعة امتثالاً وتواضعاً، جوزي على تواضعه برفع الدرجات، كقوله: من تواضع لله رفعه الله، ثم لما علم أن أهل العلم بحيث يستوجبون عند أنفسهم وعند الناس ارتفاع مجالسهم خصهم بالذكر عند الجزاء، ليسهل عليهم ترك ما لهم من الرفعة في المجلس تواضعاً لله تعالى.

بعدها. وقيل: هي منسوخة بالزكاة.

أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُدْرِكُوا بَيْنَ يَدَيْ جَبْرَتِكُمْ مَكْفَتٌ إِذْ لَرَّ قَعْمُوا وَكَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقْبَمُوا الصَّلَاةَ وَأَتَانَا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾.

﴿الشفقتم﴾ أخفتم تقديم الصدقات لما فيه من الإنفاق الذي تكرهونه وأنَّ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴿فإذا لم تفعلوا﴾ ما أمرتم به وشق عليكم و ﴿تاب الله عليكم﴾ وعذركم ورخص لكم في أن لا تفعلوه. فلا تفرطوا في الصلاة والزكاة وسائر الطاعات ﴿بما تعملون﴾ قرئ بالطاء والياء.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَلْتَوُونَ ﴿١٧﴾﴾.

كان المنافقون يتولون اليهود وهم الذين غضب الله عليهم في قوله تعالى: ﴿من لعنه الله وغضب الله﴾ (10) ويناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين ﴿ما هم منكم﴾ يا مسلمون ﴿ولا منهم﴾ ولا من اليهود كقوله تعالى: ﴿من يذب بيننا وبينهم وبيننا﴾ (11) ولا إلى هؤلاء ﴿ولا هؤلاء﴾ (11) ﴿ويحلفون على الكذب﴾ أي: يقولون إننا لمسلمون فيحلفون على الكذب الذي هو ادعاء الإسلام. ﴿وهم يعلمون﴾ أن المحلوف عليه كتب بحت.

فإن قلت: فما فائدة قولهم وهم يعلمون؟ قلت: الكذب أن يكون الخبر لا على وفاق المخبر عنه سواء علم المخبر أو لم يعلم. فالمعنى: أنهم الذين يخبرون وخبرهم خلاف ما يخبرون عنه وهم عالمون بذلك متعمدون له كمن يحلف بالغموس، وقيل: «كان عبد الله بن نبتل المنافق يجالس رسول الله ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود فبينما رسول الله في حجرة من حجره إذ قال لأصحابه: يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعين شيطان»، فدخل ابن نبتل وكان أزرق. فقال له النبي ﷺ: «علام تشتمني أنت وأصحابك؟ فحلف بالله ما فعل. فقال عليه السلام: «فعلت». فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه (12) فنزلت.

مائة درجة، بين كل درجتين حضر الجواد المضمهر سبعين سنة (1). وعنه عليه السلام: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» (2). وعنه عليه السلام: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء» (3) فأعظم بمرتبة هي واسطة بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله. وعن ابن عباس: «خير سليمان بين العلم والمال والملك فأختار العلم فأعطى المال والملك معه» (4). وقال عليه السلام: «أوحى الله إلى إبراهيم يا إبراهيم إني عليم أحب كل عليم» (5). وعن بعض الحكماء: ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العلم، وأي شيء فات من أدرك العلم، وعن الأحنف: كاد العلماء يكونون أرباباً، وكل عز لم يوطد بعلم فإلى ذل ما يصير. وعن الزبير: العلم نكر فلا يحبه إلا تكورة الرجال.

يَأْتِيهِمُ الْآيَاتُ إِذَا نَسِيَهُمُ الرَّسُولُ فَمِمَّا بَيْنَ يَدَيْ جَبْرَتِكُمْ صَدَقَةٌ لَكُمْ سَبْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ تَرَّ جَدُّوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧﴾.

﴿بين يدي نجواكم﴾ استعارة ممن له يدان. والمعنى: قبل نجواكم. كقول عمر: «من أفضل ما أوتيت العرب الشعر يقدمه الرجل أمام حاجته فيستعطر به الكريم ويستنزل به اللثيم» (6) يريد: قبل حاجته ﴿نلكم﴾ التقديم ﴿خير لكم﴾ في دينكم ﴿وأطهر﴾ لأن الصدقة طهرة. روي «أن الناس أكثرنا مناجاة رسول الله ﷺ بما يريبن حتى أموه وأبرموه فأريد أن يكفوا عن ذلك فأمرنا بأن من أراد أن ينجيه قدم قبل مناجاته صدقة. قال علي رضي الله عنه: لما نزلت دعاني رسول الله ﷺ فقال: ما تقول في دينار؟ قلت: لا يطيقونه. قال: «كم قلت حبة أو شعيرة». قال: إنك لزهيد. فلما رأوا ذلك اشتد عليهم فارتدعوا وكفوا، أما الفقير فلعسرته، وأما الغني فلشحه» (7). وقيل: كان ذلك عشر ليالٍ ثم نسخ. وقيل: ما كان إلا ساعة من نهار، وعن علي رضي الله عنه: «إن في كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي. كان لي دينار فصرفته فكننت إذا ناجيته تصدقت ب درهم» (8). قال الكلبي: «تصلق به في عشر كلمات سألهم رسول الله ﷺ» (9). وعن ابن عمر: كان لعلي ثلاث لو كانت لي واحدة منهن كانت أحب إلي من حمر النعم: تزويجه فاطمة، وإعطاؤه الراية يوم خيبر، وآية النجوى، قال ابن عباس: هي منسوخة بالآية التي

(5) رواه ابن عبد البر في كتاب: العلم من غير سند. والزليعي 429/3.

(6) لم يخرج الزليعي.

(7) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، ومن سورة المجادلة (الحديث رقم: 3300)، وابن حبان في كتاب: أخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم (الحديث رقم: 6941).

(8) رواه الحاكم في المستدرک 482/2.

(9) قال الزليعي لم أجده 431/3.

(10) سورة المائدة، الآية: 60.

(11) سورة النساء، الآية: 143.

(12) رواه الحاكم في المستدرک 482/2 وأحمد في المسند 267/1.

(1) أخرجه أبو يعلى بلفظ فضل العالم على العابد سبعين درجة (الحديث رقم: 856).

(2) أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب: فضل العلماء والحث من طلب العلم (الحديث رقم: 223)، وأخرجه أبو داود في كتاب: العلم، باب: الحث على طلب العلم (الحديث رقم: 3641)، وأخرجه الترمذي في كتاب: العلم، باب: فضل الفقه على العبادة (الحديث رقم: 2682).

(3) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: نكر الشفاعة (الحديث رقم: 4313)، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في طلب العلم فصل في فضل العلم وشرقه (الحديث رقم: 1707).

(4) مسند الفردوس.

يعني: أنهم الغاية التي لا مطمح وراءها في قول الكذب حيث استوت حالهم فيه في الدنيا والآخرة.

أَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٨﴾

﴿استحوذ عليهم﴾ استولى عليهم من حاذ الحمار العانة إذا جمعها وساقها غالباً لها، ومنه كان أحنوبياً نسيج وحده وهو أحد ما جاء على الأصل نحو استصوب واستنوق أي: ملكهم ﴿الشيطان﴾ لطاعتهم له في كل ما يريده منهم حتى جعلهم رعيته وحزبه. ﴿فانساهم﴾ أن يذكروا الله أصلاً لا بقلوبهم ولا بالسنتهم. قال أبو عبيدة: حذب الشيطان جنده.

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ رَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾

﴿في الأذلين﴾ في جملة من هو أذل خلق الله لا ترى أحداً أذل منهم.

كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ أَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَلَّغْتَ وَرَسُولُكَ إِنَّكَ إِلَى اللَّهِ فَاعٍ ﴿١١﴾

﴿كتب الله﴾ في اللوح ﴿لأغلبن أنا ورسلي﴾ بالحجة والسيف أو بأحدهما.

لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنَّا وَيَدَّيْنَهُمْ حَتَّى تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٢﴾

﴿لا تجد قوما﴾ من باب التخييل خيل أن من الممتنع المحال أن تجد قوماً مؤمنين يوالون المشركين. والغرض به أنه لا ينبغي أن يكون ذلك وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال مبالغة في النهي عنه والزجر عن ملابسته والتوصية بالتصليب في مجانبه أعداء الله ومباعدتهم والاحتراس من مخالطتهم ومعاشرتهم وزاد ذلك تأكيداً وتشديداً بقوله: ﴿ولو كانوا آباءهم﴾ ويقول: ﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان﴾ وبمقابلة قوله: ﴿أولئك حزب الشيطان﴾ بقوله: ﴿أولئك حزب الله﴾ فلا تجد شيئاً أنخل في الإخلاص من موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه بل هو الإخلاص بعينه ﴿كتب في قلوبهم الإيمان﴾ أثبتته فيها بما وفقهم فيه وشرح له صدورهم ﴿وأيدهم بروح منه﴾ بلطف من عنده حييت به قلوبهم، ويجوز أن يكون الضمير للإيمان أي: بروح من الإيمان على أنه في نفسه روح لحياة القلوب به.

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَسْعَوْنَ ﴿١٥﴾

﴿عذاباً شديداً﴾ نوعاً من العذاب مفاقماً ﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ يعني: أنهم كانوا في الزمان الماضي المتداول على سوء العمل مصرين عليه أو هي حكاية ما يقال لهم في الآخرة.

أَعْتَدُوا لِمَنَّهُمْ جَهَنَّمَ فَاذْعَبُوا وَاعْنِيبُوا سَبِيلَ اللَّهِ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿١٦﴾

وقرى ﴿إيمانهم﴾ بالكسر أي: اتخذوا إيمانهم التي حلفوا بها أو إيمانهم الذي اظهروه ﴿جنة﴾ أي ستره يتسترون بها من المؤمنين ومن قتلهم.

﴿فصنوا﴾ الناس في خلال أمنهم وسلامتهم ﴿عن سبيل الله﴾ وكانوا يثبطون من لقوا عن الدخول في الإسلام ويضعفون أمر المسلمين عندهم.

لَرَأَيْتُمْ هَؤُلَاءِ إِذْ أُوتُوا اللَّهَ مِنَّا فَذَعَبُوا عَنَّا أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٧﴾

وإنما وعدهم الله العذاب المهين المخزي لكفرهم وصداهم كقوله تعالى: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب﴾ ﴿من الله﴾ من عذاب الله ﴿شيئاً﴾ قليلاً من الاغناء. روي أن رجلاً منهم قال: لننصرن يوم القيامة بأنفسنا وأموالنا وأولادنا.

يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ لِمَن كَانَ عَدُوًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا حُبًّا يَوْمَ يَكْفُرُ كُلٌّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

﴿فيحلفون﴾ لله تعالى على أنهم مسلمون في الآخرة ﴿كما يحلفون لكم﴾ في الدنيا على ذلك ﴿ويحسبون أنهم على شيء﴾ من النفع يعني: ليس العجب من حلفهم لكم فإنكم بشر تخفى عليكم السرائر وأن لهم نفعاً في ذلك نفعاً عن أرواحهم واستجار فوائدهم ننيوية، وأنهم يفعلونه في دار لا يضطرون فيها إلى علم ما يوعدون. ولكن العجب من حلفهم لله عالم الغيب والشهادة مع عدم النفع والاضطرار إلى علم ما أنذرتهم الرسل، والمراد: وصفهم بالتوغل في نفاقهم ومرورتهم عليه وأن ذلك بعد موتهم وبعثهم باقٍ فيهم لا يضمحل. كما قال: ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه. وقد اختلف العلماء في كذبهم في الآخرة والقرآن ناطق بثباته نطقاً مكشوفاً كما ترى في هذه الآية وفي قوله تعالى: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾^(١) نظر كيف كذبوا على أنفسهم ورض عنهم ما كانوا يفترون، ونحو حسابهم أنهم على شيء من النفع إذا حلفوا استنظارهم المؤمنين ليقبسوا من نورهم لحساب أن الإيمان الظاهر مما ينفعهم. وقيل عن ذلك: يختم على أفواههم ﴿ألا إنهم هم الكاذبون﴾

ثلاثة أبيات على بعير ما شأوا من متاعهم. فجلوا إلى الشام إلى أريحا وأنزعات إلا أهل بيتين منهم آل أبي الحقيق وآل حبي بن أخطب فإنهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة بالحيرة.⁽⁵⁾

سَجَّ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾
هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ حَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ يُخْرَجُونَ يُؤْتَمَرُونَ بِالْبَيْتِمْ وَكِبْرَى الْمُؤْمِنِينَ فَأَعْتَبُوا بِتَأْوِيلِ الْأَنْبَاءِ ﴿٢﴾.

اللام في ﴿لأول﴾ الحشر تتعلق بأخرج وهي اللام في قوله تعالى: ﴿يا ليتني قدمت لحياتي﴾⁽⁶⁾ وقولك جثته لوقت كذا والمعنى: أخرج الذين كفروا عند أول الحشر. ومعنى ﴿أول الحشر﴾: أن هذا أول حشرهم إلى الشام. وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء قط وهم أول من أخرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام، أو هذا أول حشرهم وآخر حشرهم إجماع عمر إياهم من خيبر إلى الشام. وقيل: آخر حشرهم حشر يوم القيامة؛ لأن المحشر يكون بالشام، وعن عكرمة: من شك أن المحشر ههنا يعني الشام. فليقرأ هذه الآية. وقيل: معناه أخرجهم من ديارهم لأول ما حشر لقتالهم؛ لأنه أول قتال قاتلهم رسول الله ﷺ ﴿ما ظننتم أن يخرجوا﴾ لشدة بأسهم ومنعتهم ووثاقة حصونهم وكثرة عددهم وعتبتهم وظنوا أن حصونهم تمنعهم من بأس الله ﴿فاتاهم﴾ أمر الله ﴿من حيث لم يحتسبوا﴾ من حيث لم يظنوا ولم يخطر ببالهم. وهو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف غرة على يد أخيه، وذلك مما أضعف قوتهم وفل من شوكتهم وسلب قلوبهم الأمن والطمأنينة بما قذف فيها من الرعب والهجم أن يوافقوا المؤمنين في تخريب بيوتهم ويعينوا على أنفسهم وثبط المنافقين الذين كانوا يتولونهم عن مظاهرتهم. وهذا كله لم يكن في حسابهم ومنه اتاهم الهلاك.

فإن قلت: أي فرق بين قولا وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم، وبين النظم الذي جاء عليه؟ قلت: في تقديم الخبر على المبتدأ ليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم وفي تصيير ضميرهم اسماً لأن وإسناد الجملة إليه ليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالي معها بأحد يتعرض لهم أو يطعم في معازتهم وليس نك في قولك:

وظنوا أن حصونهم تمنعهم

وقرى: ﴿فاتاهم الله﴾ أي: فاتاهم الهلاك. و﴿الرعب﴾

وعن الثوري أنه قال: كانوا يرون أنها نزلت فيمن يصحب السلطان. وعن عبد العزيز بن أبي رواد أنه لقيه المنصور في الطواف فلما عرفه هرب منه وتلاها، وعن النبي ﷺ أنه كان يقول: «اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي نعمة فإني وجدت فيما أوحيت إلي لا تجد قوماً»⁽¹⁾. وروي أنها نزلت في أبي بكر رضي الله عنه، وذلك أن أبا قحافة سب رسول الله ﷺ فصكه صكة سقط منها. فقال له رسول الله «أوفعلته؟» قال: «نعم» قال: «لا تعد». قال: «والله لو كان السيف قريباً مني لقتلته»⁽²⁾. وقيل في أبي عبيدة بن الجراح: قتل إياه عبد الله الجراح يوم أحد. وفي أبي بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز وقال لرسول الله: دعني أكن في الرحلة الأولى قال: «متعنا بنفسك يا أبا بكر أما تعلم أنك عندي بمنزلة سمعي وبصري»⁽³⁾. وفي مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد. وفي عمر قتل خاله العاص بن هشام يوم بدر. وفي علي وحزمة وعبيدة بن الحرث قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المجادلة كتب من حزب الله يوم القيامة»⁽⁴⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحشر مدنية

«صالح بنو النضير رسول الله ﷺ على أن لا يكونوا عليه ولا له. فلما ظهر يوم بدر قالوا: هو النبي الذي نعته في التوراة لا ترد له راية. فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا. فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكة حالفوا عليه قريشاً عند الكعبة، فأمر عليه السلام محمد بن مسلمة الأنصاري فقتل كعباً غيلةً وكان أخاه من الرضاعة، ثم صبحهم بالكتائب وهو على حمار مخطوم بليف فقال لهم: اخرجوا من المدينة. فقالوا: الموت أحب إلينا من ذلك. فقتلوا بالحرب، وقيل: استمهلوا رسول الله عشرة أيام ليتجهزوا للخروج ففسد عبد الله بن أبي المنافق وأصحابه إليهم لا تخرجوا من الحصن، فإن قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم، ولئن خرجتم لنخرجن معكم. فدرّبوا على الأرزقة وحصنوها فحاصرهم إحدى عشرين ليلة فلما قذف الله الرعب في قلوبهم وأيسوا من نصر المنافقين طلبوا الصلح فأبى عليهم إلا الجلاء على أن يحمل كل

(5) قال الزيلعي غريب وهو في تفسير الثعلبي هكذا من غير سند /3 438

(6) قال أحمد: كأنه يريد أنها اللام التي تصحب التاريخ، كقوله: كتبت لعام كذا ونشر كذا.

(1) رواه ابن مروي في تفسيره وفي مسند الفريوس. والزيلعي /3 432

(2) قال الزيلعي غريب ونقله الثعلبي 3/433.

(3) رواه الثعلبي في تفسيره. والزيلعي 3/433.

(4) رواه الثعلبي وابن مروي والواحد في تفسيرهم 3/434.